

المحاضرة الأولى: المسرح العربي: الضبط المصطلحي

الكتابة المسرحية وإرغامات العرض والتمثيل:

إن الفنان في المسرح يضع في اعتباره قبل أي شيء آخر أنه يُصور أفعال الإنسان ممثلة ومرئية ومنظورة، وأنه حينما يحرك جماعة من الممثلين على خشبة المسرح لا يحرك لك أفرادا يتغنى كل واحد منهم بعواطفه الذاتية، وإنما يريك وسطا اجتماعيا يتفاعل فيه الفرد مع الآخر كما يتفاعلون في الحياة، وتصل بينهم وشائج وعلاقات يلوّنها الصراع الذي يكون بين الفعل وردّة الفعل، أو بين الفرد والجماعة، أو بين إرادة تكافح مجتمعا للوصول إلى غاية، أو إرادة تصارع القوى الغامضة للطبيعة.

من أجل هذا وغيره، كان فن المسرحية أكثر الفنون الأدبية استعصاءً على كاتبه، أو أشدها حاجة إلى مهارة فنية خاصة تستطيع أن تؤلف بين عناصر هذا الفن المتشعبة من قصة وممثل ومسرح وجمهور وحوار، وأن يخضع لقيود الركح أو الخشبة والتزاماتها، وأن تتعاون كل هذه العناصر في غير تضارب أو تنافر حتى يصل الكاتب إلى عمل فني متكامل ومتناغم.

وإذا كانت المسرحية تشترك مع سائر فنون الأدب الأخرى في أنها ضرب من الأدب يعطيك مفهوما حيا للحياة مع تشعب مسالكها وتعدد ضروبها، فإن لها من الطبيعة والخصوصية والأداء ما يميزها عن هذه الفنون. فما هو طابعها وما هي حدودها؟

مفهوم المسرحية باعتبار التقائها مع القصيدة الغنائية والقصة المروية وافتراقها عنهما:

1. المسرحية والقصيدة الغنائية:

تشترك المسرحية مع القصيدة الغنائية والقصة المروية في أنها جميعها تتناول أفعال الإنسان وسلوكه وموقفه من الحياة، وأنّ المادة الأولية التي تتشكل منها هي اللغة. وتلتقي المسرحية مع القصيدة الغنائية في أنهما شكلين من أشكال الأدب وتفترقان حينما ندرك أن القصيدة الغنائية شكل أدبي يصوّر لك تجربة معيّنة عاشها شاعر معيّن، وأهم خصائص هذه التجربة أنها تجسيد لموقف إنساني واحد وتعبير عن الحالة النفسية والشعورية لشاعر واحد. فهي خلاصة من عناصر الفكر والشعور والوجدان الذاتي المتصلة بنفسية الشاعر وذهنيته وحده، بل إن مهمة القصيدة الغنائية هي أن تطلعك على وجدان شاعر معيّن وتصب في نفسك أحاسيسه عن طريق العلاقات الجديدة التي تتألف منها لغته والتراكيب المستحدثة التي تنبع من تجربته الخاصة. وهكذا نرى أن عملية الخلق الفني في القصيدة الغنائية هي عملية متصلة بنوع من الغناء الذاتي يحصر الشاعر غناؤه في نفسه لا يتعداها إلى غيره؛ أي تعبير عن جانب فردي بحت، أو هو شعر يعبر عن تجربة واحدة لإنسان واحد.

أما المسرحية، فهي تصور لك أفرادا لا فردا واحدا، وهي تعرض عليك مجموعة بشرية يحاول كل فرد فيها أن يعرض عليك نفسه، لا على أنه فرد مستقل بوجوده منقطع إلى عالمه الخاص، سابح في خيالاته، ولكن على أنه فرد مرتبط في أفعاله وفي سلوكه بجماعة من الناس، فالأفراد في المسرحية ليسوا ذواتا منفردة، وإنما ذوات متصلة، وكاتب المسرحية الذي

ينطق الشخصوخ ويحركها لا يعبر عن وجدان ذات واحدة، ولا ينحصر في تجربة واحدة دون سواها، وإنما يعبر عن وجدانات مختلفة متضاربة، وعن تجارب عديدة يصطرع فيها فعل الفرد بفعل الآخر، وتشترك فيها أفعال جماعة إنسانية باعتبارها وحدة من مجتمع لا باعتبارها أفرادا يتغنى كل واحد منهم بمشاعره على حدة.

2. المسرحية والقصة المروية:

وأما ما تعلق بأوجه الاختلاف بين القصة المروية وبين المسرحية، فإن أبسط ما قيل فيه وأوجزه، أن المسرحية أدب يراد به التمثيل، والمسرحية قصة لا تكتب لتقرأ فحسب، وإنما هي قصة تكتب لتمثل. وإذا كان للمسرحية أن تشترك مع القصة المروية في أن كلا منهما يختار قطاعا من الحياة يصوره، وتتخذ الأشخاص وسيلة في كليهما للتعبير عن الأحداث، وتترسم ملامح كل ذلك في ذهن المتلقي عن طريق ما يجسده الحوار والكلام، وإذا كان كل ما سبق ضرورة لازمة لكل من القصة والمسرحية، فإن كلا من الفنين يختلف اختلافا أساسيا في تناول الأحداث ورسم الشخصيات.

تستخدم المسرحية في تصوير الفعل الإنساني عناصر لا تتوافر في القصة المروية، مثل الممثلين والملابس والمسرح (الركح أو الخشبة) والمناظر والنظارة والبناء الذي يجتمع فيه جمهور المتفرجين، ثم إن المسرحية لا يمكنها في حدود الزمن المكفول لها أن تعالج أفعال الإنسان بنفس الحرية التي تعالجها بها القصة المروية، فإذا كان في استطاعة كاتب القصة أن يصور الفعل وأجزاء الفعل، وأن يتعقب الأحداث الصغيرة إلى أدق جزئياتها، ويرى أيضا أن من حقه أن يسترسل في سوابق الفعل ولواحقه، فإن كل هذا أبعد ما يكون عن تناول المسرحية لأفعال الإنسان، لأن المسرحية لا تختار من الفعل إلا جانبه المثير، والأكثر قدرة على الإيحاء، والأوثق صلة بالحدث الرئيسي [أو ما يسمى بخط الفعل المتصل؛ مثل مائدة الطعام في القصة المروية وفي المسرحية، إذ يمكن في القصة التطرق لشكلها، نوع خشبها، من أين جلب، ثمنها، تاريخ وجودها في المنزل، الأطعمة الموجودة فوقها مع ذكر تفاصيلها الكاملة..... وغيرها من الأمور، لكن في المسرحية لا يمكن التطرق لكل هذا] فللمسرحية طريقتها الخاصة في اختيار الجوانب البارزة من الفعل، وفي تصفية الأحداث من كل شائبة قد لا تمت إلى المغزى العام بسبب وثيق، فالكاتب المسرحي لا ينقل كل ما يراه في الحياة، كما أنه لا يمكن أن تكون قطعة مقتبسة من الواقع، بل إنَّ أروع ما في الفن المسرحي هو هذه الناحية المسماة الطاقة الإخبارية، وهي الطاقة التي تتمثل في اختيار جوانب الفعل المثيرة والمركزة.

إن المسرحية حسب كولردج Coleridge (1772-1834) ليست نسخة من الطبيعة، وإنما هي محاكاة لها؛ والمحاكاة عند كولردج وعند أرسطو من قبله لا تحمل عندهما معنى التقليد الحرفي، وإنما تحمل معنى الخلق الفني، ما معناه أن مشاهد الحياة الواقعية لا يمكن أن تبلغ ذروة الإثارة والانفعال إلا بالفن، فأول مهام كاتب المسرحية أن يكون كالعندسة المركزة التي تستقبل شعاعا واحدا من أشعة الشمس وتجمعه ثم تجعل منه ضوءا، بل تضغط الضوء فتجعل منه وهجا، فالعبرة في العمل المسرحي هي إذن، رفع الحوادث المختارة والهامة إلى ذروة الفن والإثارة.

على كاتب المسرحية، فضلا عما سبق، أن يتذكر دائما أن المقصود بقصته هو إخراجها داخل مسرح مبني له حدوده، وأن من يقوم بتمثيلها على الخشبة هم ممثلون من البشر لهم طاقتهم، وأمام جمهور هو الآخر من البشر، فيجب أن تكون أفعال المسرحية في حدود الطاقة البشرية للممثلين، فلا يلجأ الكاتب إلى الأفعال الخارقة التي يقتضي تمثيلها

طبيعة غير بشرية، فهذا مما يسهل على كاتب القصة المروية ومما يتعذر على كاتب القصة التمثيلية، وهذا الأمر ينطبق أيضا على عنصر المسرح، ذلك البناء المسقوف الذي تنحصر فيه مناظر الرواية وأثاثها وأضواؤها، فهذا أيضا عامل يلزم كاتب المسرحية أن يختار من الأفعال ما يمكن حدوثه داخل هذا الحيز المكاني، عكس كاتب القصة الوصفية الذي يهيم بك في كل واد، وينقل شخوصه ويحركهم أينما شاء وكيفما شاء. كما أن جمهور المسرحية له من الالتزامات ما يجب أن يراعى، ومن أبرزها تحديد زمن المسرحية حتى لا ترهق أذهان الجمهور وأبدانهم.

إن المسرح في الأخير فن درامي يراهن على تحويل النص المسرحي إلى عرض يجسده ممثلون على خشبة مستعنيين في ذلك بمختلف الفنون التعبيرية، ومن أجل هذا وصف المسرح بأنه "أب الفنون". ولقد اختلف النقاد والدارسون حول جنس فت المسرح ونوعه، وتمحورت الإشكالية حول سؤال جوهري هو: هل المسرح أدب أم ليس أدبا؟ إن الذين يصنفون المسرح ضمن أنواع الفنون يستندون إلى فكرة أن المسرح عرض يقوم على تفاعل مجموعة من الفنون التي تتداخل في تشكيل ذلك العرض المسرحي، أما الذين يعدونه شكلا أدبيا، فإنهم يستندون إلى فكرة أن المسرح نص مادته الكلمة وموضوعه حياة الإنسان، فالمسرح في آخر المطاف، ضرب من الأدب عند تناوله بكونه نصا، وضرب من الفنون عند تناوله بكونه عرضا.